BAU Journal - Society, Culture and Human Behavior

Volume 4 | Issue 1
ISSN: 2663-9122

Article 11

August 2022

الغربة القسرية وتحديات البقاء في شعرمحمود درويش

بشير فرج
استاذ مشارك -قسم اللغة العربية و ادابها -كلية العلوم الانسانية -جامعة بيروت العربية -لبنان,
bashir.faraj@bau.edu.lb

Follow this and additional works at: https://digitalcommons.bau.edu.lb/schbjournal

 Part of the Arabic Language and Literature Commons

Recommended Citation

فرج, بشير (2022) "الغربة القسرية وتحديات البقاء في شعرمحمود درويش," *BAU Journal - Society, Culture and Human Behavior*: Vol. 4: Iss. 1, Article 11.
DOI: https://www.doi.org/10.54729/WOXQ2326
Available at: https://digitalcommons.bau.edu.lb/schbjournal/vol4/iss1/11

This Article is brought to you for free and open access by Digital Commons @ BAU. It has been accepted for inclusion in BAU Journal - Society, Culture and Human Behavior by an authorized editor of Digital Commons @ BAU. For more information, please contact ibtihal@bau.edu.lb.

الغربة القسرية وتحديات البقاء في شعرمحمود درويش

Abstract

ليت الزمان يعود يوماً".. عبارة جميلة نسمعها كثيراً جدّاً في كل البلدان العربية، وهي تحمل معانٍ كثيرة، منها ما هو جميل، ومنها ما هو مُجْهِد، مُنْعب، للنفس، لما فيه من ذكريات مؤلمة.

الاغتراب هو شعور الإنسان الواعي بحاجته إلى وطن، مع وجوده في الوطن الذي ولد فيه ونشأ على حبه، وذلك لأن الوطن هذا يكون قد تغير كثيراً بحيث لم يعد بالإمكان الارتياح إليه. وفي العادة، ينتج الاغتراب هذا حين يتحول الوطن مرتعاً لفكر ظلامي غاشم، أو حقلا ينمو الجهل فيه ويتكاثر كالطحالب التي تتسلق جدارن البيوت العتيقة. أما الغربة فهي احساس الإنسان بالحنين إلى الوطن بعد أن يكون قد هجر الوطن بسبب الحاجة أو القمع، حاملاً صورة الوطن في مخيلته على شكل ملامح جمالية، وحكايات حب طفولية، وذكريات حلوة ومرة تأبى النسيان حين يجتمع الاغتراب مع الغربة في شخص واحد، أي حين يكون الشخص المعني قد شعر بالاغتراب في الوطن قبل الرحيل عنه، وشعر بالحنين للوطن بعد هجره والابتعاد عنه، فإن الشعور الجديد يغدو حالةً نفسيةً غير مستقرة تعيش حياة تنقل دائمة بين أمكنة وأزمنة متباعدة بحثاً عن وطن بديل.

إن الاغتراب في الأوطان يولّد أشد أنواع المشاعر الإنسانية وأكثرها ألماً لأنها تنتج عن الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية المحيطة بالبشر، وتسبب لهم انهيار في منظومة العلاقات الاجتماعية واختلال في العلاقة مع الذات، مما يؤدي إلى نشوء فجوة بين الفرد وذاته، وبينه وبين الأفراد الآخرين والمجتمع. إنه الانفصام عن الذات البشرية والاستياء والتذمر، وكذلك العزلة والعداء. وهي حالة غير الغربة التي تكون قرينة سفر المرء أو هجرته من بلده إلى بلد آخر كخيار فردي ولأسباب شخصية اقتصادية كانت أو للتحصيل العلمي، للعمل أو لاكتساب العلوم والمعارف. وربما تكون الغربة عبر السفر أو الهجرة خلاصاً فردياً من الضغوط المتولدة عن الظروف والصراعات السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية في بلداننا، إلا أنها تبقى شأناً وقراراً وخياراً فردياً يقدم عليه الفرد طواعية، وهي حالة غير الاغتراب التي نتحدث عنه هنا، بالرغم من تشابك الحالتين في بعض المسببات بخلفية المشهد العام لبلداننا العربية التي بسبب واقعها المقيت.

Keywords

الغربة, محمود درويش, الوطن, الاحتلال, القمع, الحنين

This article is available in BAU Journal - Society, Culture and Human Behavior: https://digitalcommons.bau.edu.lb/schbjournal/vol4/iss1/11

1. مقدّمة

"ليت الزمان يعود يومًا".. عبارة جميلة نسمعها كثيرًا جدًّا في كل البلدان العربية، وهي تحمل معاني كثيرة، منها ما هو جميل، ومنها ما هو مُجْهِد، مُتْعب للنفس، لما فيه من ذكريات مؤلمة.

الاغتراب هو شعور الإنسان الواعي بحاجته إلى وطن، مع وجوده في الوطن الذي ولد فيه ونشأ على حبه، وذلك لأن الوطن هذا يكون قد تغير كثيرًا بحيث لم يعد بالإمكان الارتياح إليه. وفي العادة، ينتج الاغتراب هذا حين يتحول الوطن مرتعًا لفكر ظلامي غاشم، أو حقلًا ينمو الجهل فيه ويتكاثر كالطحالب التي تتسلق جدارن البيوت العتيقة. أما الغربة فهي إحساس الإنسان بالحنين إلى الوطن، بعد أن يكون قد هجر الوطن بسبب الحاجة أو القمع، حاملاً صورة الوطن في مخيلته على شكل ملامح جمالية، وحكايات حب طفولية، وذكريات حلوة ومرة تأبى النسيان حين يجتمع الاغتراب مع الغربة في شخص واحد، أي حين يكون الشخص المعني قد شعر بالاغتراب في الوطن قبل الرحيل عنه، وشعر بالحنين للوطن بعد هجره والابتعاد عنه، فإن الشعور الجديد يغدو حالة نفسية غير مستقرة تعيش حياة تنقل دائمة بين أمكنة وأزمنة متباعدة بحثًا عن وطن بديل. لكن الزمن يتكفل بتلاشي الحكايات القديمة التي تُذكر الإنسان بالوطن وثقافته، فيما تتقلص قدرة الوجدان على استحضار ملامح الوطن القديم وجمالياته. وبعد رحلة عمر طويلة مع الغربة والاغتراب، يكتشف الإنسان المغترب هذا أنه لا يوجد وطن لمن هجر وطنه، أو هجره الوطن.

حين يعود مغترب إلى وطنه بعد غياب طويل وكُلُه شوق إلى الوطن والأهل، يجد مفاجأة كبرى تنتظره على بوابة الوطن، هي عبارة عن حقيقة صادمة ومخيفة أحيانًا تقول له إن كل شيء في الوطن قد تغير في غيابه، وإن الوطن لم يعد نفس الوطن الذي تركه خلفه، وإن الأهل أصبحوا غير الأهل الذين يعرفهم. ومع الأيام يكتشف المغترب أن الوطن اغترب عن تاريخه، وأن الأهل اغتربوا عن ثقافتهم، وأن الحياة تنكرت لماضيها وتراثها. فالوطن كائن حي يتطور مع تقادم الزمن، وليس سهولًا وجبالًا وصحاري وبحارًا تعيش حياة ثابتة أبدية. إذ فيما يُغير العمران معالم الوطن كل يوم، ويُبدل التناحر على المال قيم الإنسان كل ساعة، يُشوه النمو السكاني والإعلام التجاري العادات والتقاليد بشكل متواصل، وهذا يجعل نظرة الأهل إلى كل شيء في الحياة تتغير، ومن ذلك نظرتهم إلى كل مغترب عائد إلى وطنه بعد غياب طويل.

الغربة إذن هي حنين الإنسان المغترب إلى الوطن وثقافة الوطن وأهله في الوطن، مع عدم الارتياح لثقافة المكان الذي يعيش فيه بعيدًا من الوطن.

ولما كان الشعور بالحنين للوطن يطغى على عقل الإنسان المغترب بين الحين والآخر، فإنه يُقلص قدرة المغترب على التركيز على إدارة شؤون حياته اليومية... فالغربة هي الحنين إلى مكان يعيش في مخيلة زمان بعيد رحل، ولم يعد له وجود، ولن يعود.

أما الاغتراب فهو عالم افتراضي يعيش المغترب فيه بقايا العمر بعيدًا من ثقافة الوطن، يبحث في داخله عن وطن بديل، مع إدراكه الواعي أنه لن يعثر على وطن مهما طال الزمن. وهذا الأمر يعني أن الاغتراب قلق وجودي من الصعب التعرف إلى هويته ومكانه، ومن الأصعب إيجاد المسكنات الكفيلة بالتغلب عليه واستعادة الشعور بالاطمئنان... إنه محاولة فاشلة للهروب من وجود يعيش خارج الزمان، إلى وجود وزمان ليس لهما مكان. وحين يجتمع الاغتراب والغربة معًا في شخص واحد، فإن شعور الإنسان هذا يتحول إلى حالة تساؤل عن المصير، يغلب عليها الصراع في داخل ذات مغتربة تعيش في مكان غريب متنقلة بين أمس مات ولن يعود، ومستقبل لن يرى النور يومًا مهما طال الزمن.

لقد أحبَّ محمود درويش وطنه فلسطين بكل مشاعره وعواطفه، من أجل ذلك كان شعره شعلة مضيئة يوقظ النائمين والغافلين من غفلتهم، والذين أجبرتهم الغربة القسرية على البعد من الوطن، ويذكّر بحقهم المغتصب. شعره ألهب المشاعر والعواطف الانسانية وأثار العقول، وأيضًا أثّر في عقول الأحرار والمسلمين، وفي الواقع لقد أشاع الشاعر الكبير وطنه، فلسطين، في كل ألفاظه ومعانيه وأبياته، وهذا الأمر يبقي دومًا جزءًا من شعره يمثّل تلك العداوة الشاملة على المستويين الشخصي والجماعي. قال في مقابلة صحفية مع مجلة العالم: "مهمتي حماية هوية شعبي"، وفي كل بيت من أبيات شعره تعبير فني صادق عن مأساة الشاعر ومأساة أهله وجيله وبني قومه، وهو تعبير يمس القلوب ويضر الجسم ويقل العقل، حتى هؤلاء الذين لم يسمعوا شيئًا عن قضية فلسطين وكارثتها، يقول: «... نحن الآن مصابون بأزمة، لا الوطن فقط ولا مكان إقامة، عندنا أزمة قبور، فعندما يموت الفلسطيني الآن لا نعرف أين ندفنه... ألا يكفينا أننا لا نملك حق الحياة في وطن ولا نملك حق الحياة في منفي؟ وأيضًا لا نملك عنوانًا لجثتنا"! يقول في «قصيدة الأرض» كلمات يشق بها عنان السماء (كامبل، 1996، ص 25):

بلادي البعيدة علي.. كقلبي!
بلادي القريبة مني.. كسجني، (الجيوسي، 1997، ص 226)
وأيضًا يقول :
وطني حقيبة والحقيبة وطني
ليس لي منفي كي أقول لي وطن (درويش، 1987، ص 87)

انا اعترف بان محمود درويش يرى كل شيء في فلسطين ويصف كل شيء فيها، حب فلسطين محفور في صدره وقلبه، إن فلسطين حبه الكبير الذي لا يضعف ولا يموت. وإذا كانت الظروف والأوضاع قد أجبرته على فراقها فإن حبها كامنٌ في صدره وباق معه أينما كان، وفلسطين معشوقته النهائية إذ يقول:

وميزاتي على رأسي عقالٌ فوق كوفية
وكفي صلبة كالصخر...
تخمشُ من يلامسها
سجِّلْ!
أنا عربي
فلسطينية العينين والوشم

فلسطينية الاسم
فلسطينية المنديل والقدمين والجسم (درويش، 1964، ص 73)

أصبحت قصائد محمود درويش داخل الأرض المحتلة حجارة الانتفاضة والثورة على أيدي الفلسطينيين، أجبرت العدو على أن يبادر إلى نفيه، ونفوه إلى خارج الوطن، وكانت قصائده تلتهب بالنضال وتبشِّر بالثورة والعودة، يقول في«أوراق الزيتون» مخاطبًا أمه: (درويش،1964، ص 33)

يا أمنا! انتظري أمام الباب، إنا عائدون!
ماذا طبخت لنا؟
فإنا عائدون،

من أجمل أشعاره تلك التي ينهى فيها الناس عن السفر ويحذّرهم ويدعوهم إلى المقاومة والصمود في وجوه الصهاينة المحتلين على لسان أبيه:

وأبي قال مرة
حين صلى على حجر
غضَّ طرفًا عن القمر
وأخدر البحر... السفر!
وأبي قال مرة
الذي ماله وطن
ما له في الثرى ضريح
... ونهاني عن السفر!

خلاصة القول أنه شاعر قضية، شاعر مأساة، شاعر نكبة وشاعر فاجعة، نحن نحس من قصائده أن الحبيبة والوطن شيئان توأمان، وليست الحبيبة شيئًا والوطن شيئًا آخر، لذلك فالحب عنده يرتبط كل الارتباط بوطنه وقضيته.

2. العوامل المؤسسة لتجربة الغربة والضياع

شكلت تجربة الغربة والضياع أهم الموضوعات التي قام عليها مضمون الشعر الحديث. وقد ارتبطت هذه التجربة بحالة اليأس والمعاناة التي طبعت شعراء الحداثة، بالنظر إلى ما كان يغلف واقعهم من تخلف وفقر، وبالنظر إلى الصدمة التي أحسها الشاعر بعد نكبة فلسطين، كما أنها جاءت متعدّدة المظاهر. وسنحاول، في هذا التحليل الوقوف عند أبرز مظاهر هذه التجربة، موضّحين مختلف الوسائل المنهجية والحجاجية والأسلوبية التي اعتمدها الناقد في مقاربة هذه التجربة.

فهذا محمود درويش يعبِّر عن المنفى والشتات في قصيدته "مديح الظل العالي" التي كتبها بعد مجزرة صبرا وشاتيلا، فنراه يتناول المجزرة والشتات بشيء من الأمل، أو بثقة المناضل.

وتنعكس هذه الثقة في بعض أجزاء القصيدة، حين يوصي قائلًا: "هي هجرة أخرى فلا تذهب تمامًا"، "وهي هجرة أخرى فلا تكتب وصيتك الآخيرة والسلاما".

هذا الأمل وتلك الحماسة في "مديح الظل"، أوضحه محمود درويش سياقهنا الخاص بقوله: "أحمل سخطًا ومشاعر سوداء بعد ما حصل في بيروت، فالاجتياح ليس حدثًا عابرًا في تاريخ شعبي ولا أمتي، وأنا لا أستطيع وللأبد أن أغفر للإسرائيليين وللأمريكيين، وللصمت العربي الرسمي ما فعلوه في بيروت".

3. الغربة

الغربةُ هي الشعور بالانغرال والوحدة والابتعاد عن موروث أو رؤى لا تتناسق مع فهم الأديب والفنان. فنراها تأخذ ملامح وأوجهًا متعددة. إما أن تكون هذه الغربة ذاتية- داخلية، وإما أن تكون خارجية- جغرافية.

ومحمود درويش عاش الموقفين. ففي الأول وقف بوجه السلطة السياسية وسلطة الأعراف والتقاليد. أما في الثاني فانتظر العودة إلى جنته المفقودة أو مكانه المعهود. للانتظار اشتياقٌ، وللمكان ذكرياتٌ جميلةٌ تسيطر على وعي الشاعر محمود درويش ولاوعيه. من هنا نرى أهم أنواع الغربة عنده هي الغربة النفسية وما تحمل من دلالات باطنية. يريد شاعرنا من العقل الباطني أن يعطيه هدوءًا واستقرارًا في زمن اللاستقرار أو في زمن الشظايا الفكرية والعقائدية. الشظية تتفلسف داخل أرض الفلسطيني وقلبه متجاوزةً شرعية العدالة والإنسانية، معتقدةً بالعنف. فهي تحارب، إذن هي موجودة، ومحمود درويش يكتبُ إذن هو موجود. فكلما ازدادت الشظايا ازدادت الغربةُ فتكاثر محمود درويش وتكاملت المفارقة.

ففي افتتاح محمود درويش قصيدة "طوبى لشيء لم يصل" رأى بصورةٍ مدهشةٍ الاستشهاد ملازمًا للإنسان الفلسطيني، وبدأ يحاوره بإيجابيةٍ تنبعثُ من تراكم نفسي كان يعيشه:

هذا هو العرس الذي لا ينتهي
في ساحة لا تنتهي
في ليلة لا تنتهي
هذا هو العرس الفلسطيني
لا يصلُ الحبيبُ إلى الحبيب
إلا شهيدًا أو شريدًا. (درويش، 2000، ص 248)

أرغمت هذه الفضاءات التراجيدية الشاعرَ على أن يرحلَ مع الحلم وزواياه الخفيه التي تكمن في اللاوعي الفردي. فانتقل محمود درويش من واقع المأساة إلى عالم الأحلام:

الحلم أصدق دائمًا. لا فرق بين الحلم
والجسد المخَّبأ في شظية
والحلم أكثر واقعية (م. ن.، ص250)

يرى أحمد جواد مغنية بأنَّ "التشرد دائم، وتتشابه أحزان الفلسطينيين تشابه الموتى في غربة نفسية- وجودية:

من أي عام جاء الحزن من سنة فلسطينية لا تنتهي
وتشابهت كل الشهور تشابه الموتى" (مغنية، 2004، ص 134)

اتّجه محمود درويش إلى الغربة الخارجية من خلال صورة راشد حسين. وبدأ قصيدة "كان ما سوف يكون" بلحظات يومية وأليمة حدثت خارج الوطن، وهيَ باقية في الوعي الإنساني:
في الشارع الخامس حياني. بكى. مال على السور الزجاجي، ولا صفصاف في نيويورك. أبكاني. أعاد الماء للنهر. شربنا قهوة ثم افترقنا في الثواني. (درويش، 2000، ص 298)
والغربة النفسية- الوجودية في هذه القصيدة "كان ما سوف يكون" بادية من الناحية الإنسانية في تعابير الشاعر من تشرد الشعب الفلسطيني في كل اتجاه، في جميع أرجاء الأرض عبر البحر الذي أكلت أسماكه جسد الفلسطيني الغريق وفي البراري التي أكل طيرها جثة الفلسطيني المقتول بعد اقتلاعه من وطنه:

... وفي كل فراغ
سنرى صمت المغني أزرقًا حتى الغياب
منذ عشرين سنة
وهو يرمي لحمه للطير والأسماك في كل اتجاه
ولأمي أن تقول الآن: آه" (مغنية، 2004، ص 13)

تتضاعف الغربة النفسية عند محمود درويش عندما تذكّر تفاصيل الحياة الصغيرة والجزئية مع راشد حسين. "فراشد حسين الشاعر مات مغتربًا في نيويورك، كمثال للشعب الفلسطيني المشرد والمتشتت الذي يموت في الغربة" (النابلسي، ص421). يقول محمود درويش:

لا يحب المدرسة
ويحب النثر والشعر
لعل السهل نثرٌ
ولعل القمح شعرٌ
ويزور الأهلَ يوم السبتِ
يرتاح من الجسر الإلهي
من أسئلة البوليس
لم ينشر سوى جزئين من أشعاره الأولى
وأعطانا البقية (درويش، 2000، ص 299)

بما أن المَرثيّ والرّاثي يتحدان في أكثر الأشياء، بدأ محمود درويش يرى نفسه مشاركًا في الحدث الشعري، وينفي صفة الحلم عن نفسه. وفي هذا النفي إثباتٌ. هذه حالة نفسيةٌ عاشها الشاعر بفقدان راشد حسين:
ومسائي ضيقٌ. جسم وحبيبتي ورقٌ. لا أحد حول مسائي يتمنى أن يكون النهر والغيمة

... من أين يمُر القلب؟
لا أحلم الآن بشيء
أشتهي أن أشتهي
لا أحلم الآن بغير انسجام
أشتهي

أو
أنتهي
لا. ليس هذا زمني (درويش، 2000، ص 300)

تتفاقم الحالة النفسية عندما يكون الداخل و الخارج وجهين لعملة واحدة، وهي الغربة. فبدأ محمود درويش يطرح أسئلته الوجودية:

أنبقى هكذا نمضي إلى الخارج في هذا النهار البرتقالي
فلا نلمس إلا الداخل الغامضَ؟
أنبقى هكذا نمضي إلى الداخل في هذا النهار البرتقالي
فلا نلمس إلا شرطة الميناء؟ (م. ن. ص 303)

اعتبر محمود درويش في قصيدة "أحمد الزعتر" أنَّ أحمد في صراعه مع العدو بقي وحيدًا وخانته العواصم العربية. لذا اعتمد على نفسه ورموزه الوطنية كالبرتقال، متشبثًا بذاته، مصورًا غربته النفسية:

أنا أحمد العربي- قال
أنا الرصاص، البرتقالُ، الذكرياتُ
وجدتُ نفسي قرب نفسي
فابتعدت عن الندى والمشهد البحري
تل الزعتر الخيمة
وأنا البلاد وقد أتت
وقد تقمصني
وأنا الذهاب المستمر إلى البلاد
وجدتُ نفسي ملء نفسي. (م. ن.، ص305)

يغيّر محمود درويش محور الخطاب من أحمد الزعتر إلى نفسه. فنراه يعيش الغربة النفسية مع المرثيّ، ويلجأ إلى رصيف الحلم والشعر. ففي الحالتين نراه يسيرُ في اللاوعي الفردي:

كلما آخيتُ عاصمة رمتني بالحقيبة
فالتجأتُ إلى رصيف الحلم والأشعار
كم أمشي إلى حلمي فتسبقني الخناجرُ
آه من حلمي ومن روما! (درويش، 2000، ص 307)

"هروب درويش إلى ذكرياته الماضية دليل ضياع في غربة نفسية زادتها غربته الجسدية ألمًا وحسرة. فالمخيم الذي كان ممرًا يوصل إلى استعادة الحبيبة- الأرض، متطلعًا إلى مساعدة الأخوة في ذلك، صار الحصار يلفه بمن فيه من لاجئين مقاومين، وأصبح سجينًا كالملايين من العرب المسجونين دون القدرة على إطلاق صرخة رفض أو استنكار لما يجري. ولم يعد أمام أحمد الفلسطيني العربي المعاصر في تل الزعتر إلا الهجوم، لأن البحر ينتظره أن يتشرد ذاهبًا في هجرة جديدة داخل الوطن العربي وخارجه:

كان المخيم جسم أحمد
كانت دمشق جفون أحمد
كان الحجاز ظلال أحمد
صار الحصار مرور أحمد فوق أفئدة الملايين
الأسيرة
صار الحصار هجوم أحمد
والبحر طلقته الأخيرة". (مغنية، 2004، ص148)

فمحمود درويش في قصيدة "وتحمل عبء الفراشة" حاول أن يشير إلى عدم الرضوخ للمستحيل وعدم الرضوخ لمحاصرة الأحلام والذكريات. هذا الرفض يأتي من غربة نفسية أحدثها العدو الصهيوني في كيان الشاعر:

وسيدفنون العطر بعدك يمنحون الوردَ قيدك
يحكمون على الندى المهجور بالإعدام بعدك
يشعلون النار في الكلمات بعدكَ. يسرقون الماء مِن
أعشاب جلدك. يطردونك من مناديل الجليل
وتقول: لا- للمسرح اللغوي
لا- لحدود هذا الحلم
لا - للمستحيل. (درويش، 2000، ص 328)

لم يفقد محمود درويش الأملَ بغدٍ مشرقٍ مع كل التراكمات النفسية التي عاشها داخل الوطن وخارجه. ولذلك يقول:

خارج الطقس
أو داخل الغابة الواسعة
كان يهملني من أحبُّ
ولكنني
لن أودع أغصاني الضائعة
في زحام الشجر
إنني أنتظر. (م. ن.، ص332)

خَلَقت المتناقضات في قصيدة "لمساءٍ آخر" نهاية لذكرياته الجميلة، فتبخَّر عمره في محطات السفر حاملًا غربته النفسية معه:

إنني أذكرُ
أو لا أذكرُ
العمر تبخَّر
في محطات القطارات
وفي خطوتها. (م. ن.، ص334)

انتهى التفاؤل عند محمود درويش، ولم تستيقظ أمنياته المترسبة في لا وعيه، بعد ما كانت أحلامه واضحة وبسيطة. نقرأ له:

وأنا أذهب نحو الساحة المنزوية
هذه كل خلاياي
حروبي
سُبُلي
هذه شهوتي الكبرى
وهذا عسلي
هذه أغنيتي الأولى
أغني دائمًا
أغنية أولى
ولكن
لن أقول الأغنية. (درويش، 2000، ص 338)

"وكأنني بالشاعر قد وصل إلى قناعة أن لا شيء يستحق منه أغنية جديدة، وكل شيء يشده إلى ماضيه، ويعيد تكرار الأغنية القديمة. ويستدرك درويش موضحًا أن الواقع الإحباطي يغرس في نفسه الإحباط، وهذا يجعله يخاف من التمكن من قول أغنيته القديمة. وكأن الواقع العربي المقيد لحركة التحرير سيمنعه من قبول الأغنية الثورية، إنها قمة المرارة التي غرسها واقع الغربة في فكر الشاعر ونفسه، فالخروج الذي أعقبه الموت ثم انبثاق الولادة من رحم الموت، يتحولان هنا إلى الخروج من حضن الحبيبة- الأرض، فالموت بعيد منها. وتستقر الأمور بالشاعر إلى حدود الموت دون أن تكوّن ولادة متجددة. (مغنية، 2004، ص 176)

امتزجت حالة الفلسطيني المغترب بحالة الغجري التائه، والاثنان يبحثان عن مكان في وسط الشظايا المنهمرة. تجسّدت صورة الغربة النفسية خارج الوطن بمفردة "الحقيبة"، وما تحمله من دلالات الهجرة، فبدأ يتكئ عليها في أكثر الأحيان. هذه الحقيبة هي البعد الوجودي والمصيري في حياة محمود درويش، لذا اتحد معها، وحاور كل تفاصيلها حتى وصل إلى هدوء الجسد/ الموت. يقول محمود درويش في قصيدة "مديح الظل العالي":

وطني حقيبةٌ
في الليل أفرشها سريرًا
وأنام فيها
أخدع الفتيات فيها
أدفن الأحباب فيها
أرتضيها لي مصيرًا
وأموت فيها. (درويش، 2000، ص ص 373-372)

لم يرضَ محمود درويش بعدم الاستقرار، فانتهت به الغربة إلى أقصى حدودها. يقول أفنان القاسم "إنها الحقيبة- المصير، تشخيص للاغتراب الأقصى: الحقيبة- القبر." (القاسم، 1987، ص142)

عندما سقطت الأقنعة كاملة أحسَّ المقاتل الفلسطيني بوحدته وغربته. لأنه افتقد المرتكز العاطفي (الإخوة والأصدقاء) والمرتكز الفيزيائي (القلاع، الشراع، الدواء) والمرتكز النفسي (السماء- الأمام- الوراء). فمن هذا المنطلق سيطرت عليه الغربة و بدأ يصرخ بضغط نفسي عالٍ:

سقط القناعُ عن القناع عن القناع
سقط القناعُ
لا إخوةٌ لكَ يا أخي، لا أصدقاءُ
يا صديقي، لا قلاعُ
لا الماء عندكَ، لا الدواءُ ولا السماءُ ولا الدماءُ ولا الشراعُ
ولا الأمام ولا الوراءُ
حاصر حصارك...
لا مفرُّ. (درويش، 2000، ص 357)

"صحيح لا يوجد خيار، لا مفر، وسقوط القناع (أي الانفضاح)، حتمية الفعل ما قبل الأخير ولكن عملية الفضح، هنا ليست كلامية، مثلما هي عليه عند كتبة البورجوازية الصغيرة، وإنما من خلال الفعل الواقعي، وإن كلف ذلك كل شيء، فهو الفعل ما قبل الفعل الأخير: الموت" (القاسم، 1987، ص ص 79-78).

بدأ محمود درويش يشكك بأناشيد الذات العربية والفلسطينية ورسمَ صورة لوحدته الغامضة ووقوفه بوجه الزوابع التي أصابت بيروت والهوية الجماعية. يقول محمود درويش في قصيدة "مديح الظل العالي":

وحدي أدافع عن جدار ليس لي
وحدي أدافع عن هواءٍ ليس لي
وحدي على سطح المدينة واقفٌ...
أيوبُ مات، وماتت العنقاء، وانصرفَ الصحابة
وحدي. أراود نفسي الثكلى، فتأبى أن تساعدني على نفسي
ووحدي
كنتُ وحدي
وحدة الروح الأخيرة. (درويش، 2000، ص ص 354-353)

4. الخاتمة

ارتسمت الغربة النفسية في تكرار مفردة "وحدي" سبع مرات، حتى لجأ محمود درويش إلى الأساطير الدينية والإقليمية مصورًا تدهور اللاوعي الجمعي عند الإنسان العربي. لم يبق شيء جوهري ووجودي يستطيع أن يساعد محمود درويش على محنته. فأيوب رمز الصبر والمحِن ماتَ، والعنقاءُ رمز الانبعاث ماتت، والوحدةُ تركته وحيدًا في متاهاته النفسية. لذا يرى أفنان القاسم بأن محمود درويش استبصر في وحدته "الشعور بالذنب الآخر لا الشعور بالذنب، وهذا الشعور بذنب آخر متمثل بموت أيوب والعنقاء و \انصراف الصحابة، حيث في هذا يكمن ذنبهم الذي يحمله المقاتل كوصمة عار يبحث عن محوها ببندقيته. لقد خانه الجميع الذين هم بمثابة النفس لديه، وخانت نفسه الثكلى نفسه الضعيفة" (القاسم،1987، ص 7)

المصادر والمراجع

- إسماعيل، عز الدين. (1988). التفسير النفسي للأدب. ط 4. بيروت: دار العودة.
- الجيوسي، سلمى الخضراء. (1997). موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- درويش، محمود. (2000). الأعمال الكاملة. بغداد :دارالحرية.
- القاسم، افنان. (1978). مسألة الشعر والملحمة الدرويشية. بيروت :عالم الكتب.
- قصاب، وليد. (2007). مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية. دمشق: دار الفكر.
- المساوي، عبد السلام. (2009). جماليات الموت في شعر محمود درويش. بيروت: دار الساقي.
- كامبل، روبرت ب. (1996). أعلام الادب العربي المعاصر. بيروت: مركز الدراسات للعالم العربي المعاصر.
- معين، محمود. (1357 هـ). چهار مقاله نظامي عروضي سمرقندي، تهران: نشر جامي.
- مغنية، أحمد جواد. (2004). الغربة في شعر محمود درويش. بيروت: دار الفارابي.